

غمرة ساهين، سألته ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال: لا ورد لنا سوى القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر. قلت له: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً؟ قال: أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة ويبركتها يفيض الله عليك بالتفصيل، وإذا خلوت فاذكر الله - على طريقة بينها - وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على بضعة أيام إلا وقد رأيتني أظير بنفسي في عالم آخر، غير الذي كنت أعهده، واتسع لي ما كان ضيقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماماً . يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي، إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتني إن كانت لي سعادة في هذه الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان قد غاب عن غريزتي، وكشف لي ما كان خفياً عني مما أودع في فطرتي^(١).

ونلمح أثر الصدق في حديث الإمام عن نفسه، ونحس مدى الحسرة التي كان يلقاها طالب العلم الديني آنذاك حين يذهب إلى منابع العلم، فلا يجد إلا منابع آسنة قد تغير طعمها من طول الركود.

وقد عمل الإمام جاهداً في كبره على تطوير مناهج التعليم في الأزهر، بحيث يخرج الأزهر رجالاً عاملين وعلماء مستنيرين وبذل جهداً كبيراً في سبيل تأسيس جامعة مدنية بجوار الجامعة الأزهرية.

عودة إلى طنطا:

رجع الشيخ محمد عبده إلى المسجد الأحمدى وأقبل على المدرسين في شغف وتلهف للمعرفة، ففهم الدروس ثم تميز على زملائه فالتفوا حوله ليطالع لهم .

(١) تاريخ الاستاذ الإمام ٢٣/١ .